أنوار السُّنَّة المُحمديَّة
شرح رياض الصالحين (١١)
باب الصبر (٦)

الشيخ أحمد السيد.

عطاء
البناء المنهجي

الفهرس

المُقدمة: ٤
الحديث الخامس والعشرون: "... "ما يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في نفسِه وولدِه ومالِه..." ٦
تعليق على رواية الحديث وأحكام الترمذي: ٦
فوائد الحديث: ٨
أولًا: من أعظم ثمرات البلاء تكفير الذنوب ٨
ثانيًا: تنوُّع وجوه وأبواب البلاء: ٩
ثالثًا: قد تكون ثمرة طول البلاء هي مغفرة جميع الذنوب والخطايا. ١٠
الحديث السادس والعشرون: "...يَا ابْنَ الخَطَّابِ: فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ..." ١٠
فوائد الحديث: ١٠
ميزة حِفظ الحديث: ١١
الطباع الغليظة والعجيبة لبعض الناس: ١١
أهميَّة سيطرة الإنسان على دواعي النفس: ١١
القرآن الكريم تنزَّل على الأحداث وعلى ذلك تربى الصحابة رضوان الله عليهم: ١٣
تقديم أهل القرآن في مجلس عمر رضي الله تعالى عنه: ١٤
الحديث السابع والعشرون: "...إنَّها ستَكونُ بَعدِي أَثَرةٌ وأُمورٌ تُنكِرونَها!..." ١٥
الحديث الثامن والعشرون: "... إِنكُمْ سَتَلْقَونَ بَعْدِي أَثَرَةً..." ١٥
فوائد الحديث: ١٦
تحقق خبر النبي ﷺ فيما جاء من القرون بعده: ١٦
توجيه النبي ﷺ للمسلمين بالصبر في تعاملهم مع هذا الابتلاء: ١٧
الحديث التاسع والعشرون: "... اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ..." ١٩
فوائد الحديث: ٢٠
من سنن القتال العملية الانتظار حتَّى زوال الشمس: ٢٠

الفصل بين النهي عن تمني لقاء العدو والرغبة في الجهاد: ٢٠
اختصاصُ المُجاهدين في سبيل الله بالأجور العظيمة في الآخرة:..... ٢٢
أهميَّة الدعاء والاستعانة بالله قبل الإقدام على الأعمال الكبيرة: ٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقدمة:

الحمد لله ربِّ العالمين، حمدًا كثيرًا، طيبًا مُباركًا فيه، كما يحبُّ ربُّنا تباركَ وتعالى ويرضى. الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه. اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ، وبارِك على محمد وعلى آل محمد، كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ.

اللهمَّ إنَّا نسألكَ العافية في الدنيا والآخرة، اللهمَّ إنَّا نسألكَ العفو والعافية في ديننا ودُنيانا وأهلينا وأموالنا، اللهمَّ استر عوراتنا، وآمِن رَوعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا، ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتكَ أنْ نُغتال من تحتنا. أمَّا بعد..

نستعينُ بالله، ونستفتِحُ مجلسًا جديدًا من (مجالس أنوار السنَّة المُحمديَّة)، وأيضًا تحت العنوان الكبير (الاستهداء بالسنَّة)، عَبر تدارُس أحاديث (رياض الصالحين).

وقد ذكرتُ مِرارًا في بداية الدروس ما سأظل أُذكِّر به، وهو أنَّ أبواب الدين التي بدأ بها النوويُّ –رحمه الله– في رياض الصالحين: الإخلاص، والصبر، والآن سيدخل إلى الصدق، والتوبة، والمُراقبة، وما إلى ذلك...

هذه الأبواب هي من أهمِّ الأبواب التي ينبغي أنْ تُدرس، ويُعتَنى بها، ويُربَّى عليها طلاب العلم، ويتعلموها. وتدريس العلوم الإسلاميَّة دون المرور على هذه الأبواب، مرور تعلُّمٍ ومرور دراسةٍ، هو خللٌ كبيرٌ، خللٌ يُؤدِّي إلى نتائجَ سيئةٍ في مُخرجات طلب العلم عند مَن يطلب العلم؛ فمَن يظنُّ أنَّ طلب العلم هو مُجرَّد دراسة الفقه، والعقيدة، وعلوم القرآن، وأصول التفسير، وما إلى ذلك، ويأخذ التدرُّج المعروف، والكتب والشروحات والحواشي، **ويظنُّ** أنَّه يحوز العلم، فقد أخطأ؛ فهو قد حاز جانبًا من جوانب العلم، وبقي ما هو أهمُّ منه؛ ولاحِظوا، أنا لا أتحدَّث الآن عن ما هو أهمُّ منه من جِهة الموعظة بأنه موعظةٌ تُرقِّق القلب، لا! وإنَّما **من جِهة العلم نفسه. هذا من العلم الذي ينبغي أنْ يُعلَّم، وينبغي أنْ يُعتَنى به.**

فإن قلتَ: ولكن هذه أبوابٌ معلومةٌ ومعروفةٌ، ونحن نبحث عن المسائل العلميَّة المُستجدَّة على النفس وعلى الذهن، يتفاعل معها الطالب بطريقةٍ مُعيَّنةٍ، أقول لكَ: لقد جاء جبريل إلى محمد ﷺ بعد مرحلةٍ من النبوة، بعد مرحلةٍ من إسلام الصحابة، بعد مرحلةٍ من تعلُّم الصحابة عند رسول الله ﷺ، ثمَّ جاء جبريل ليُعلِّم الصحابة دينهم، وكان التعليم هذا هو في الإسلام والإيمان والإحسان، في القصة المعروفة ما بين جبريل وبين النبي ﷺ التي هي: "بيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ ذاتَ يَومٍ، إذْ طَلَعَ علَيْنا رَجُلٌ شَدِيدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَدِيدُ سَوادِ الشَّعَرِ، لا يُرَى عليه أثَرُ السَّفَرِ..." إلى آخر الحديث المعروف، وفيه سؤالٌ عن الإحسان، فقال: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ"، وفيه سؤالٌ عن الساعة وعن أشراطها، ثمَّ بعد ذلك قال: "فإنَّه جِبْرِيلُ أتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ." [صحيح مسلم: ٨] لاحظتَ؟ «**يُعلِّم**»؛ هذا أمرٌ يُعلَّم، وهذه مقامات الأمور المُتعلِّقة بالقلوب، وما إلى ذلك، هذه أمورٌ تُعلَّم، ويجِب على طلاب العلم أنْ يعلموها.

ولأجل ذلك، فإنَّ من أهمِّ صُور التجديد المُحتاج إليها، في هذا الزمن في سِياق تنشئة الطلاب وتعليمهم: أنْ يُدخَل في مناهج التعليم الشرعيَّة... ولا أتكلَّم عن مناهج التعليم النظاميَّة والأكاديميَّة، لأنَّ هذه لا تعتني أصلًا بفكرة أنْ يخرج الإنسان مُسلمًا، صادقًا، خاشعًا، قانتًا؛ فهو نظامٌ تعليميٌّ مُعيَّنٌ، مُتَّصِلٌ مع فكرة الدولة الحديثة، أو الخروج والوظائف، وما إلى ذلك، وهذا شيءٌ آخرٌ، نحن لا نتكلَّم عنه الآن.

نحن نتكلَّم عن العلم الشرعيِّ، الذي يتعلَّمه الإنسان يبتغي به وجه الله، ليصل إلى ما هو معلومٌ من ثمرات العلم، **يجِب أنْ تُدخَل هذه المواد، وهذه العلوم، في أساس المناهج، وفي أساس سُلَّم العلم، ولا يكون دخولها –كما قلتُ– من باب فقط هدف ترقيق القلب**؛ فيكون –مثلًا– يكون عندنا برنامجٌ علميٌّ، لكن لا ننسى أنْ نجعل لنا مجلسًا إيمانيًّا في الأسبوع، من باب أنَّه مَوعِظةٌ، هذا ممتازٌ وجميلٌ، ويجب أنْ يكون؛ لكن أنا أقصد حتَّى في سُلَّم العلم، كما يدرس الطالب كتابًا فقهيًّا في المذهب؛ يتعب في تفكيك العبارات، وفي الحواشي، وفي الشروحات، وإلى آخره... وهذا طيبٌ، فكذلك يدرس رياض الصالحين، يدرسه دراسةً كاملةً، يتعلَّم قواعد الدين الكُبرى، ويتعلَّم الآداب.

فهذه أمورٌ تُدرَس دراسةً، سَواء كتاب رياض الصالحين أو غيره، فأعظم البركة أنْ تكون دراسة هذه الأبواب من مرجعيَّة الوحي؛ لأنَّ هذه الأبواب كتب فيها العلماء كذلك. والكتابات مُختلفةٌ؛ فيها كتاباتٌ صافيةٌ، وفيها كتاباتٌ فيها كدرٌ، وفيها إشكالٌ... ولا تخلو من فائدةٍ؛ لكن الأعظم من ذلك أنْ تكون دراسة هذه الأبواب عَبر أحاديث النبي ﷺ، وحتَّى هنا نُلاحظ -رحمه الله- يأتي بآياتٍ من القرآن؛ فهي ليست خاصَّةً بالحديث النبويِّ.

فهذه مُقدِّمةٌ ذكرتُها مِرارًا بشكلٍ مُختصرٍ في الدروس الماضية، ولعلي أُذكِّر بها في بعض الدروس القادمة كذلك؛ حتَّى يُؤكَّد على أهميَّتها دائمًا.

لا زلنا في باب الصبر، وقد أطلنا فيه كثيرًا، وهو حريٌّ بذلك.

قال النوويُّ رحمه الله:

الحديث الخامس والعشرون: "... "ما يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في نفسِه وولدِه ومالِه..."

٤٩- "وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في نفسِه وولدِه ومالِه، حتَّى يلقَى اللهَ تعالَى وما عليه خطيئةٌ" رواه الترمذيُّ، وقال: حديثٌ حَسنٌ صحيحٌ."
[سنن الترمذي: ٢٣٩٩، حسن صحيح]

تعليق على رواية الحديث وأحكام الترمذي:

هذا الحديث أخرجه الترمذيُّ من طريق محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة. وهذه السلسلة مشهورةٌ جدًّا، وهي سلسلةٌ حَسنةٌ جيدة الإسناد؛ فالأحاديث المرويَّة بها في الجُملة، أحاديث جيّدةٌ، وهي كثيرة.

وحين نقول: جيّدةٌ، فهي ليست في أصحِّ شيءٍ، ليست في أعلى درجات الصحَّة، وكذلك ليست بالضعيفة، إنَّما هي من الأحاديث الجيدة، التي يُحتَجُّ بها في الجُملة.

وهذا الحديث صححه الترمذي كذلك، وتصحيح الترمذي تصحيحٌ له قيمته ووزنه، ومَن يصِف الترمذي -رحمه الله- بالتساهُل، فغالبًا وصْف الترمذي بالتساهُل بسبب المُراجَعة عليه في الأحاديث التي حكم عليها بالحُسن فقط؛ لأنَّ الترمذي يقول عن أحاديثَ كثيرةٍ: وهذا حديثٌ حَسنٌ، حَسنٌ، وحين تبحث في الإسناد، تجِد فيه بشكلٍ واضحٍ رجلًا ضعيفًا، وأحيانًا يقول: حَسنٌ، وبوضوح، بدون تدقيقٍ كبيرٍ يكون فيه انقطاعٌ في الإسناد، وأنتَ تكون قد درستَ أنَّ **الحَسن** هو **ما اتصل إسناده** -أوَّل شيءٍ- **برواية العدل الذي خفَّ ضبطه عن مِثله من غير شذوذٍ ولا عِلَّةٍ**؛ ثم تجد في الإسناد راويًا ضعيفًا، فكيف يقول الترمذي عن حديثٍ أنَّه حَسنٌ والراوي مشهورٌ بضَعفه؟ أو إذا كان مُنقطِعًا فكيف يقول الترمذي عن الحديث أنَّه حَسنٌ؟

ومن هنا، بدأ كثيرٌ من الشُرَّاح أو المُحققين، يتعقَّبون الترمذي، أو يصفونه بالتساهُل.

والأمر حقيقةً ليس في هذه الجِهة أصلًا، وإنَّما الجِهة الحقيقيَّة والواضحة أصلًا عند التحقيق والتحرير، هي في معنى قَول الترمذيّ: حَسنٌ، ما الذي يُريده الترمذيّ بقَوله: حَسنٌ؟ هل يُريد به الحسن بهذا المعنى أو بهذا الاصطلاح أم لا؟ والأمر الواضح -الذي أصلًا هو بالنص وليس بالاجتهاد- من الترمذي، أنَّه لم يُعرِّف الحَسن بهذا المعنى؛ وبالتالي، هو حين يقول: حَسنٌ، فهو لا يعني أنَّ الحديث ليس به ضَعفٌ. ممَّن نبَّه على ذلك، وأشار إليه ووضَّحه: الإمام ابن رجب في (شرح علل الترمذي).

ونحن لا نُريد أنْ نتوسَّع أكثر من هذا، **لكن الشاهد**: أنَّ الترمذي إذا حكم على الحديث بأنَّه صحيحٌ، سَواء قال: حَسنٌ صحيحٌ، أو قال: حَسنٌ صحيحٌ غريبٌ، أو قال: صحيحٌ غريبٌ، المُهم أن يقول كلمة «صحيحٌ»، فالأغلب أنَّ الحديث يكون صحيحًا، وإنْ كان حُكمه في هذا ليس مِثل حكم البخاري، ولا مِثل حُكم الإمام أحمد، وأمثالهما؛ وبالتالي، يُوجَد بعض الأحاديث التي حَكَم عليها بأنَّها صحيحةٌ يُخالَف فيها، ويكون الراجح أنَّها ضعيفةٌ، لكنَّها في المجموع نسبةٌ قليلةٌ.

أمَّا إذا قال: حَسنٌ أو حَسنٌ غريبٌ، دون أن يقول كلمة: صحيحٌ، فهو لا يقصد أنَّ الحديث صحيحٌ أصلًا، ولا يقصد أنَّ الحديث حَسنٌ باعتبار المُتأخرين، هو لا يقصد هذا المعنى أصلًا؛ وبالتالي، حين

يأتي شخصٌ فيقول: حَسَّنه الترمذي وهو كما قال، أو يقول: حَسَّنه الترمذي وليس كما قال، فالصحيح أنَّه ليس كما قلتَ أنتَ؛ لأنَّ الترمذي لا يُريد بهذا المعنى ما يُفهَم منه عند التحقيق.

هذه خُلاصةٌ، والكلام أكثر من ذلك بكثيرٍ، ودروس رياض الصالحين فيها إشارةٌ إلى الأحاديث التي ليست في الصحيحين من ناحية الصحة والضعف غالبًا، لكن بدون توسُّعٍ؛ فإلى هذا الحدِّ يكفي، فلا نتوسَّع أكثر من هذا.

من ناحية الحديث: قال النبي ﷺ: "ما يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في نفسِه وولدِه ومالِه حتَّى يلقَى اللهَ تعالَى وما عليه خطيئة".

فوائد الحديث:

أولًا: من أعظم ثمرات البلاء تكفير الذنوب

مرَّ معنا في الأحاديث الماضية أنَّ من أعظم ثمرات البلاء تكفير الذنوب، وأنَّ المؤمن إذا وافى الله يوم القيامة، ورأى مِقدار الحسنات، ومِقدار السيئات التي أُزيحت عن صحيفته بسبب الابتلاءات التي ابتلي بها، قد يتمنَّى مزيدًا من الابتلاء، ويقول: يا ليت المرض استمرَّ، يا ليت التعب اشتدَّ، يا ليت كذا لم يزُل. هذا سبق وذكرتُه مِرارًا.

لكن الحديث هذا فيه بعض الجوانب الجديدة، منها ما يُستفاد من قوله ﷺ: "ما يزال"، التي تُفيد الاستمرار، والتي يُفهَم منها أنَّ: **طول البلاء له اعتبارٌ أكبر في تكفير السيئات؛ فوجود البلاء شيءٌ، واستمرار البلاء درجةٌ أعلى**؛ فلذلك:

- الأمر الأوَّل: أن لا يكره الإنسان نزول الشدَّة أو المرض، أيًّا كان.
- الأمر الثاني: لو طال أمدها فلا يكره ذلك أيضًا؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: "ما يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ".

ثانيًا: تنوُّع وجوه وأبواب البلاء:

الأمر الثاني المستفاد من الحديث، كزيادةٍ في قضيَّة باب البلاء والصبر، الذي هو: تنوُّع وجوه وأبواب البلاء؛ لأنَّه قال: "في نفسِه وولدِه ومالِه"؛ وهذا يدلُّ على أنَّ الابتلاءات التي تأتي للمُؤمن هي ابتلاءاتٌ مُتنوِّعةٌ؛ فالابتلاء ليس بالضرورة أنْ يأتي للنفس بشكلٍ مُباشرٍ، قد يكون بلاء الإنسان الذي يرفعه في الآخرة، ويُكفِّر عنه سيئاته، بلاء في ولده؛ قال: "ما يزالُ البلاءُ في نفسِه وولدِه ومالِه"، وقد يكون البلاء في المال، وقد يكون البلاء في النفس، وقد تجتمع على الإنسان الأنواع الثلاثة.

وهناك وجوهٌ أخرى للبلاء لم تُذكَر في هذا الحديث. **السرَّاء والضرَّاء** هذا نوعٌ. هناك وجوهٌ أخرى مذكورةٌ في آية سورة البقرة، التي هي أنواع الشدائد التي يُمكِن أنْ تأتي، بغض النظر عن أنْ تأتي على النفس، أو على الولد، ولكن ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وهذه كلُّها مُهمٌّ أن تكون مُستحضَرة؛ **فالبلاء دائرةٌ واسعةٌ**:

١) أوَّلًا: من حيث هو، قد يكون بالخَوف، وقد يكون بالجوع، وقد يكون بفقدان الأحبة ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ﴾، وقد يكون بنقص الأموال، أو نقص الثمرات.

٢) ومن جِهةٍ أخرى: قد يكون على النفس، وقد يكون على الولد، وقد يكون في المال.

٣) ومن جِهةٍ ثالثةٍ: قد يأتي قصيرًا، وقد يمتد ويطول.

٤) ومن جِهةٍ رابعةٍ: قد يكون بالضرَّاء، وما يتعلَّق بها من أحوالٍ، التي هي البأساء والزلزلة، وما إلى ذلك... وقد يكون بالسرَّاء.

فباب البلاء في الإسلام بابٌ واسعٌ جدًّا، وهو باب اختبارٍ، لكن هذه الابتلاءات المُتعلِّقة بنقص الأموال والأنفس والثمرات، وما إلى ذلك، لها ثمراتٌ، من أعظمها -كما سلف- تكفير السيئات والخطايا.

ثالثًا: قد تكون ثمرة طول البلاء هي مغفرة جميع الذنوب والخطايا.

هذا الحديث يُستفاد منه أن ثمرة طول البلاء قد تكون مغفرة جميع الذنوب والخطايا، ليس فقط أنْ تُكفَّر بعض السيئات، وإنَّما "ما يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ... حتَّى يلقَى اللهَ تعالَى وما عليه خطيئةٌ"؛ فقد يصل الأمر بالبلاء إلى أنْ يكون سببًا لمحو جميع السيئات من رحمة الله سبحانه وتعالى، هذا كلُّه من رحمة الله سبحانه وتعالى.

ثمَّ قال النوويّ رحمه الله:

الحديث السادس والعشرون: "...يَا ابْنَ الخَطَّابِ: فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ..."

٥٠- "عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قدم عُيينة بن حصنٍ" هذا مرَّ معنا قريبًا عيينة بن حصن، في قسمة غنائم حُنين.

" قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، فَنَزَلَ عَلَى ابنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنيهِمْ عُمَرُ رضي اللَّه عنه، وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولاً كَانُوا أَوْ شُبَّاناً، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخي لَكَ وجْهٌ عِنْدَ هذَا الأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ. فَلَمَّا دَخَل قَالَ: هِي يَا ابْنَ الخَطَّابِ: فَوَاللَّه مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ، وَلا تَحْكُمُ فِينا بِالعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ رضي اللَّه عنه حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّه تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ. واللَّهِ مَا جاوزَهَا عُمرُ حِينَ تَلاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافاً عِنْدَ كِتَابِ اللَّه تَعَالَى. رواه البخاري". [أخرجه البخاري: ٤٦٤٢]

فوائد الحديث:

هذا الحديث عظيمٌ، فيه فوائد كثيرةٌ، وعِبر ودروس مُتعددةٌ. لكن السؤال هو:

لماذا أخرجه النووي –رحمه الله– في باب الصبر؟

ميزة حِفظ الحديث:

تتذكرون حين تكلَّمنا قبل أيامٍ، أنَّ **ميزة حِفظ الحديث**، أنْ يستحضِر الحافظ الأحاديث المُتعلِّقة ببابٍ مُعيَّنٍ، وإنْ لم يكن في الحديث اللفظُ، فهذا الحديث ما فيه كلمة (الصبر)، ولا فيه -مثلًا- لفظٌ نبويٌّ: أنَّه مَن صبر أو كذا.. لا؛ ولكن لأنَّ النووي يعرف الأحاديث النبويَّة، التقط هذه القصة التي تدلُّ على الصبر، ويُستفاد منها الصبر. هذه ميزة من يكون له عِلمٌ بالأحاديث النبويَّة، أنَّه يأتي من الأحاديث في أبوابٍ لا تأتي بالاستدلال المُباشر، وهذه ميزةٌ.

الطباع الغليظة والعجيبة لبعض الناس:

الأمر الثاني: هو في الطباع الغليظة والعجيبة لبعض الناس؛ فعُيينة بن حصنٍ حتَّى في زمن النبي ﷺ كان له بعض المواقف الصعبة، وكان هو من المؤلفة قلوبهم، وأُعطي مائة من الإبل، وبعد زمن، جاء إلى عمر وتعامل معه بهذه الطريقة، وهذا أوَّلًا يدلُّ على قوته هو وغِلظته وجفائه؛ لأنَّه ما من أحد يقدر على أن يقول لعمر: والله ما تحكم بيننا بالعدل، ولا تُعطينا الجزل. ثمَّ مرَّ معنا في (خير القرون) قصص عمر، وطبيعة تفاعله، ومَن الذي يقدر على أن يقول لعمر هذا؟ فهذا دليلٌ على غِلظة الأعراب وجفائهم، هذا من رؤوس الأعراب، أرأيتَ إذا قالوا: الأعراب في زمن النبي ﷺ؟ هذا من رؤوس الأعراب، من كِبارهم، من عظمائهم، من صميمهم، فجاء إلى عمر قال: والله ما تُعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل؛ فَهمَّ عمر أنْ يُوقِع به.

أهميَّة سيطرة الإنسان على دواعي النفس:

تتذكرون حين تكلَّمنا أيضًا في اللقاء الماضي عن: **أهميَّة سيطرة الإنسان على دواعي النفس**؟ ومن أشدّها الغضب؟ وهنا تأتي وصيَّة النبي ﷺ، حال كون الإنسان يُتَّهم بهذا الاتهام، ويكلَّم في وجهه، وأمام مجلس الناس، بهذه الطريقة.

ثمَّ هذه المقولة كاذبةٌ؛ فأنتَ تطعن في عدل عمر؟! ابحث عن أحد آخر! لكن عمر رمز العدل، تطعن في عمر؟! فهو طعنٌ فاسدٌ، وجُرأةٌ، وعدم اتخاذ أي أسلوبٍ من أساليب الأدب، وأمام الناس، وعمر

هو عمر الذي أصلًا هو شديدٌ، ويغضب رضي الله تعالى عنه، ومع ذلك لما تُليت عليه هذه الآية ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ما جاوزها، انتهى! فهذه الآية قطعت دواعي الحركة النفسيَّة الطبيعيَّة عند عمر.

والسؤال المُهمُّ الذي ينبغي أنْ نُفكِّر فيه دائمًا: هل طبيعة تفاعُلنا مع القرآن هي مِثل هذه الطبيعة؟ هل ترسم الآيات حدود طريقنا؟ هل هناك امتزاجٌ بين التوجيه القرآني وبين الحركة اليوميَّة للإنسان بحيث إذا تجاوز مِن هنا تأتي الآية فتُوقفه من هناك؟ وإذا قصَّر من هنا تأتي الآية فتدفعه ليتقدَّم، أم لا؟

ورأيي أنَّ **هذا المقياس هو من أهمِّ المقاييس التي تُقاس بها نجاحات الحالات الدعويَّة والإسلاميَّة والإصلاحيَّة**؛ متى كان أي تكوينٍ إسلاميٍّ يظهر فيه هذا المقياس تحديدًا، فاعلم أنَّه تكوينٌ ناجحٌ؛ واقفٌ على هذا الثغر، أو على هذا الثغر، هذا تكوينه ناجحٌ، من أي مُكوِّنٍ إسلاميٍّ يكون، أو حتَّى بيئة أُسرةٍ في البيت، أيًّا كان، حتَّى وإن كانا زَوجين، يكون ما جاء في كتاب الله هو المُقدِّم لهم والمُؤخِّر في ما يأتون ويذرون، **فاعلم أنَّ هذه البيئة هي بيئةٌ صالحةٌ، وهي بيئةٌ تسير بطريقةٍ صحيحةٍ**.

ومتى وجدتَ أنَّ القرآن صار يأخذ محلًّا أدنى من ذلك... نحن لا نتكلَّم الآن عمَّن يهجرون القرآن تمامًا، لا، صار يأخذ محلًّا أدنى من ذلك، بمعنى أنَّه يكون -مثلًا- موضوعًا للحِفظ فقط، أو موضوعًا للتلاوة التي هي يُلتمَس فيها الأجر، بسبب أحرف القرآن، تلاوة الآيات، فهذا خيرٌ لا يشكُّ فيه الإنسان، ولكنَّه دون ما ينبغي أنْ يكون عليه حال المؤمن مع القرآن.

أمَّا إذا كان الأمر أدنى من ذلك كلِّه، فلا تسأل عن هذه القضيَّة، هذه خارج محلِّ النقاش أصلًا.

وبناءً على ذلك، كلُّ حالٍ يُلتمَس فيه أنْ يكون على مِنهاج النبوة ينبغي أنْ يُرفَع إلى هذه الحال. ما هي هذه الحال؟ **حال أنْ يكون القرآن، وأنْ تكون آيات القرآن الحدود التي ترسم للإنسان ما يقف عليه أو عنده وما يتجاوز، وما يتقدَّم فيه وما يتأخَّر، بناءً على آيات القرآن العزيز**؛ هذه تربية النبي ﷺ.

القرآن الكريم تنزَّل على الأحداث وعلى ذلك تربى الصحابة رضوان الله عليهم:

الآن عمر حين يفعل ذلك، يفعله لأنَّه تربَّى عند النبي ﷺ على هذا المعنى. هذا ليس أمرًا مُفاجئًا، ليس موقفًا حصل فجأة؛ هذا موقفٌ صار بعد مسيرةٍ من التغذِّي بالقرآن، أصلًا، القرآن كان ينزل في زمن النبي ﷺ على الأحداث؛ فالصحابة في طبيعة تصوُّرهم للقرآن، هم أصلًا تكوَّنوا ونشأوا على قضيَّة أنَّ القرآن مُرتبطٌ بالحدث، بحياتنا، بالحركة، بالسكون، بالسفر، بالمجيء...

ألم ينزل القرآن هكذا؟ الصحابة يذهبون فيخوضون معركة بدر، يعودون تنزل سورة الأنفال، لمَّا ينزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنفال: ٤١]، يتذكَّرون الوادي الذي كانوا فيه، ووُزعت فيه الغنائم، ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ [الأنفال: ٤٢]، هم للتوِّ كانوا فيها، بعد ما تأتي الصفحات الخمس هذه في بداية سورة الأنفال، ثمَّ يأتي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦] هذا، كأنَّنا ذهبنا في رحلة، كانت الرحلة -مثلًا- عن موضوعٍ مُعيَّنٍ، ثمَّ مسؤول الرحلة، يأتي يتكلَّم عن توجيهاتٍ نهائيَّةٍ، وختامٍ، وتعليقٍ على هذا، ثمَّ يُوصي بأشياء، في ذلك الوقت يكون لهذه الوصايا قيمتها؛ لأنَّنا أمس اجتمعنا، وأمس صار فيه هذا الخطأ، وصار فيه كذا...

فيجيء التنبيه ويجيء الكلام مُلامسًا للحدث الساخن في الذهن، الذي هو لا يزال، القرآن هكذا كان ينزل، لكن الفرق بدل من أن يكون كلام فلانٍ أو فلانٍ، يكون الناطق به محمد ﷺ خير المُرسلين، والمُبلِّغ له: جبريل خير الملائكة، والمُتكلِّم به: ربُّ العالمين سبحانه وتعالى.

تخيَّل، نحن مُصبحون اليوم، نأتي إلى مجلسٍ أو درسٍ، والصحابة يُصبحون مع النبي ﷺ يسمعون آياتٍ ما أحدٌ قد سمعها قبلهم، أوَّل مرة، للتوِّ نزلت من السماء، البارحة نزل بها جبريل، لأوَّل مرةٍ! كما ذكرنا سابقًا يأتي فيها اسم نبيٍّ جديدٍ أوَّل مرةٍ تسمع قصته، تخيَّل قصة يوسف أوَّل مرةٍ تسمعها، الآن نزلت من السماء، فرق! أو تنزل على حدثٍ مُعيَّنٍ؛ الناس رجعت من أُحدٍ، دماؤها تنزف، بيوت المدينة تألمت، الشهداء، الناس، مواقف، رأوا الرماة حين عصوا، والتفاف خالد بن الوليد، مقتل حمزة... ثمَّ

تأتي الآيات. طبعًا هناك أناسٌ مُصابةٌ، وهناك أناسٌ ثبتت، وهناك أناسٌ فَرَّت... جاءت الآيات لهم كلهم، عمر كان معهم رضي الله عنه، ما الفكرة؟ الفكرة أنه هو أصلًا تربَّى على هذا المعنى، هو تربَّى على أنَّ القرآن ما هو مادةٌ إسلاميَّةٌ فقط! هكذا، مِثلها مِثل الفقه، أو أيّ مادةٍ! أو أنَّه سببٌ للأجور والبركات فقط! هو تربَّى أصلًا على أنَّ القرآن نزل مُفصَّلًا، على الأحداث، وأنَّه هو سببٌ للتوجيه، وسببٌ لرسم الحدود، تتجاوز أم لا تتجاوز؟ تقف أم تتقدَّم؟

ومَن تربَّى هذه التربية، لا يُستغرَب منه بعد ذلك حين تأتي دواعي النفس للانتقام وللبطش، فيقول له قائلٌ: "**قال الله سبحانه وتعالى:** ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ **وهذا من الجاهلين**"، لا يُستغرَب هنا من عمر، أن يكتُم، ويكظم غيظه، ويبتلِع مشاعر الانتقام هذه كلَّها، ويقِف، ويعفو، انتهينا، صعبةٌ؟ نعم صعبةٌ، لكن هذه هي النتيجة، هذه الثمرة.

اليوم، ألقِ نظرةً على خارطة المعاهد، والحلقات القرآنيَّة، والمدارس الشرعيَّة في العالم الإسلامي؛ إلى أيّ مدى تُخرِّج طلابًا وقّافين عند كلام الله؟ إلى أيّ مدى تُؤسِّس لهذه الطبيعة في العلاقة مع القرآن؟ ودونكم الواقع وأنتم تعرفونه.

الثمرة العمليَّة من هذا الكلام كلِّه، هي أنَّنا **يجِب أنْ نُعيد تصحيح المعايير خاصَّةً فيما يتعلَّق بالقرآن، وأنْ يكون المعيار الأوَّل والأساسي هو: أنْ يكون القرآن هو السبب الأساسي في هِداية الإنسان المُسلم في يومه وليلته؛ فيقِف عند حدوده، ويفهم هِداياته، ويتَّعِظ لمواعظه، ويمتثِل أوامره، وينزجِر عند زواجره. هذه هي الخلاصة.**

والحديث فيه فوائدٌ أخرى كثيرةٌ:

تقديم أهل القرآن في مجلس عمر رضي الله تعالى عنه:

"وَكَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولاً كَانُوا أَوْ شُبَّاناً"، وهذه واحدةٌ من المعالم في خير القرون، نتكلَّم عن مرحلة عمر رضي الله تعالى عنه، في هذا المجلس، المجلس العُمريّ، مَن الذي

يُقدَّم فيه؟ القرَّاء، أصحاب القرآن والعلم به والقيام به، وما إلى ذلك... هؤلاء هم أصحاب مجلس عمر، والكلام في هذا كثيرٌ.

الشاهد من هذا كلِّه: أنَّ النووي -رحمه الله- أورد هذا الحديث ليتحدَّث عن الصبر؛ صبر الصحابة وصبر عمر رضي الله تعالى عنه، وأنَّ من أنواع البلاء التي قد يتعرَّض لها الإنسان، هي البلاء الصادر من الجاهلين، وهذا البلاء ذكره الله في القرآن فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ومنها في سورة القصص: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥] إلى آخر الآيات.

الحديث السابع والعشرون: "...إنَّها ستَكونُ بَعدِي أَثَرةٌ وأُمورٌ تُنكِرونَها!..."

ثمَّ قال النووي رحمه الله:

٥١- "وعن ابن مسعود رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: "إنَّها ستَكونُ بَعدِي أَثَرةٌ وأُمورٌ تُنكِرونَها! قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، فَما تَأْمُرُنا؟ قالَ: "تُؤَدُّونَ الحَقَّ الذي علَيْكُم، وتَسْأَلُونَ اللَّهَ الذي لَكُمْ" مُتفقٌ عليه". [أخرجه البخاري: ٣٦٠٣، ومسلم: ١٨٤٣]

"والأثرة: الانفراد بالشيء عمَّن له فيه حقٌّ".

الحديث الثامن والعشرون: "... إنكُمْ سَتَلْقَونَ بَعْدِي أَثَرَةً..."

ثمَّ قال في الحديث التالي -وهو مُشابهٌ له-:

٥٢- "وَعَنْ أَبِي يَحْيَى أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلَانًا؟ فَقَالَ: إِنكُمْ سَتَلْقَونَ بَعْدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ". مُتفقٌ عليه". [أخرجه البخاري: ٣٧٩٢، ومسلم: ١٨٤٥]

قال: "**و(أُسيدٌ) بضمِّ الهمزة، و(حُضَيرٌ) بحاءٍ مُهمَلةٍ مضمومةٍ، وضادٍ مُعجَمةٍ مفتوحةٍ، والله أعلم**".

وهذان الحديثان يُبينان أيضًا نوعًا من أنواع الشدائد أو الابتلاءات التي قد ترِد على الأفراد، أو على الجماعات، جماعاتٍ من الناس، من المُسلمين، وهذا الابتلاء مُرتبطٌ بالناحية السياسيَّة، **"إنَّها ستكون بعدي أثرة"**، هذه الأثرة، كما ذكر النووي، **"الانفراد بالشيء عمَّن له فيه حقٌّ"**.

فوائد الحديث:

تحقق خبر النبي ﷺ فيما جاء من القرون بعده:

هذا الحديث ورد عامًّا، وورد في سِياق الأنصار؛ فالأنصار من ناحية المناصب السياسيَّة سيكون عليهم أثرةٌ، وهذا الذي حصل، وهذا ليس خاصًّا بالأنصار وإنَّما بشكلٍ عامٍّ، قد يرى الإنسان أنَّ له بعض الحقوق أو الاستحقاقات عُمومًا، ثمَّ يُبتلَى بأن يُهضم حقُّه، ولا يُعطَى ما ينبغي له، سَواء كان من ناحية المنصِب، أو حتَّى من الناحية الماليَّة، وما إلى ذلك.

فالنبي ﷺ أخبر أنَّه سيكون هذا الأمر، وقد كان، في مراحلَ كثيرةٍ من التاريخ السابق، يكون الحاكم مُسلمًا، ويكون أصلًا قائمًا بأمورٍ من الدين، ويحكم بالشريعة بشكلٍ عامٍّ، ويقوم بالجهاد في سبيل الله، ويُقاتل الأعداء، ويحامي الأُمَّة، ولا يُوالي أعداء الله من اليهود والنصارى، حصل هذا كثيرًا في التاريخ، ولكن في نفس الوقت يكون ظالمًا. طبعًا لا يكون خائنًا؛ فلو كان خائنًا فالقضيَّة مُختلِفة، لو كان خائنًا فصار يُحارب الدين أو يكون مع أعداء الإسلام ضد المُسلمين، فهذا خارج أصلًا من النصوص هذه كلِّها. لكن الذي حصل في تمثُّلات هذا الحديث كثيرًا في التاريخ، هم لا يكونون خونة، وإنَّما هم قائمون بأساس دور الإمامة، وعندهم تفريطٌ في جوانبَ كثيرةٍ فيها.

التفريط هذا قد يصِل إلى حالةٍ مُتقدِّمةٍ، وجُزءٌ أساسيٌّ من التفريط الظلم، الظلم هذا إمَّا بالبطش وإمَّا بالمنع؛ البطش بأنْ يُؤخَذ الإنسان بجريرةٍ أو بشيءٍ لا يستحقُّ أنْ يُعاقَب عليه، والمنع الذي هو الأثرة، هذه الأثرة في المنع أنْ يُمنَع عمَّا ينبغي له.

وهذه القضيَّة حصلت في مراحلَ مُتقدِّمةٍ، حصلت من القرن الأوَّل -وإنْ شاء الله يأتينا في سلسلة (خير القرون) التفصيل في بعض هذه القضايا- حصلت مشاكلُ سياسيَّةٌ من البدايات، ولا أقصد

البدايات التي هي الخلفاء الراشدون، بل أقصد بعد ذلك؛ فحصلت مشاكل في القرن الأوَّل، وفي القرن الثاني، وفي القرن الثالث، واستمرَّت المشاكل السياسيَّة في تاريخ المُسلمين.

توجيه النبي ﷺ للمسلمين بالصبر في تعاملهم مع هذا الابتلاء:

النبي ﷺ يُوجِّه المُسلمين للتعامُل مع مِثل هذه الحالات؛ فمن أهمِّ التوجيهات التي ينبغي أنْ يستصحبها المُسلم في هذه الحال هو **الصبر، وألَّا يكون الموقف الأساسي للإنسان المُسلم عند وجود الظلم عليه، هو التفكير في المُواجهة وأخذ الحقِّ، في استيفاء الحقِّ الدنيوي**، لا؛ فهناك شيءٌ اسمه آخرة، وهناك شيءٌ اسمه صبر! فقد تُؤدِّي مُحاولة استيفاء كلِّ ما يتعلَّق بالحقوق أصلًا إلى مُشكلاتٍ أكبر من ذلك، وإنْ كانت هذه حتَّى فيها بعض الضوابط والتفاصيل.

- **تفصيلات في المسألة:**

فمثلًا قال النبي ﷺ: "مَنْ قُتِلَ دُونَ مالِهِ فهوَ شَهيدٌ" [صحيح البخاري: ٢٤٨٠] هل "مَن قُتِل دون ماله فهو شهيد" تشمل حتَّى هذه الدرجات؟ أن يمنع الإنسان ماله حتَّى في الناحية السياسيَّة، إذا وصل أنَّ الآخِذ هو الحاكم مثلًا، أم أن هذا يدخل في: "فَاصْبِرُوا حتَّى تَلْقَوْنِي علَى الحَوْضِ"؟ هذه مثلًا مسألةٌ فيها خِلافٌ من العلماء، فمثلًا في صحيح مُسلمٍ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه، أنَّ عَامِلَ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ أَرْضًا لَهُ فِي الطَّائِفِ، فَأَمَرَ بَنِيهِ أَنْ يَتَجَهَّزُوا بِالسِّلَاحِ، فَرَكِبَ خالِدُ بنُ العاصِ إلى عبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو فَوَعَظَهُ خالِدٌ، فقالَ عبدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو: أمَا عَلِمْتَ أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ قالَ: "مَن قُتِلَ دُونَ مالِهِ فَهو شَهِيدٌ". [صحيح مسلم: ١٤١] هذا الآن لا شأن له بالشريعة والخيانة، لا، هذا فقط في الناحية الماليَّة المُجرَّدة. وكثيرٌ من العلماء يرى أن هذه حتَّى داخلةٌ في الأحاديث الواردة في الصبر هنا، وأنَّ هذا هو الأصحُّ بحيث لا تحدث فتنةٌ أكبر من ذلك.

والحديث في هذه المسألة أيضًا لعلَّه يأخذ مجلسًا آخر يتناسب مع المسألة، وقد تأتي في سلسلة (خير القرون) بشكلٍ مُفصَّلٍ.

لكن هي من جُملة الابتلاءات التي ينبغي على الإنسان أنْ يستصحِب فيها الصبر؛ واستصحاب الصبر لا يعني عدم إنكار المنُكر، ولا يعني عدم القَول بالحقِّ؛ فقد كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يُنكرون ما يرون من المنُكرات، كما جاء عن النبي ﷺ الأمر بالصبر، فقد جاء عنه امتداح كلمة الحق عند سلطان جائرٍ [صحيح أبي داود: ٤٣٤٤،]. ولذلك، هذه المسألة ينبغي أنْ يُجمَع فيها مجموع النصوص، ويُنظَر فيها من جوانبها.

على أنِّي أُنبِّه -كما قلتُ- أنَّ هذا كله في سِياق الحُكم الإسلامي، في سِياق أنْ تكون الشريعة في الجُملة -لأنَّه يكون عندهم تقصيرٌ في هذا الجانب- هي المرجعيَّة، وألَّا يكون القائم على هذا الأمر هو مع أعداء الإسلام الصرحاء ضد المسُلمين؛ فهذه القضيَّة هي أساس مورِد النصوص.

وهذا الكلام ليس اجتهادًا شخصيًّا، فواردٌ في النصِّ في صحيح مُسلمٍ، الذي هو "ولو استُعْمِلَ عليكم عبدٌ حَبَشِيٌّ، يُقودُكم بكتابِ اللهِ" [صحيح النسائي: ٤١٩٢] وغير ذلك... لأنَّه -كما قلتُ- المقام الآن لا يسع للبسط أكثر من ذلك.

لكن في نفس الوقت، هذه الأحاديث يُستفاد منها في الردِّ على مَن يلغي، أو مَن يطعن في أحاديث السمع والطاعة مثلًا، فيقول: إنَّه لا، لا يوجد أبدًا أي حقٍّ كذا، يجِب على الإنسان أنْ...!

فهذه القضيَّة تحتاج لأن تنضبط بمجموعها، فلا إفراط ولا تفريط. **نصوص السمع والطاعة نصوص حق ثابتة عن النبي ﷺ، وهي سببٌ من أسباب حِفظ المُجتمع المُسلم، وفي نفس الوقت لم تأتِ الأحاديث هذه لتكون سببًا لتضييع الدين ولا لتكون سببًا لخيانة المُسلمين**، هي لم تأتِ لهذا ولا لهذا؛ ولذلك إذا كان الإنسان في حالةٍ أُخِذ عليه فيها بعض حقِّه، وكان الحال حالًا في الجُملة يُعظَّم فيه الإسلام وكذا، فمن أهمِّ المواقف التي ينبغي أنْ يتَّخذها ويُفكر فيها ويفهمها -كما جاء عن النبي ﷺ- الصبر، وليس صحيحًا أنْ يكون الأساس دائمًا هو استيفاء الحقوق الدنيويَّة. وهذا -كما قلتُ-، لا يمنع من إنكار المنُكر، ولا من بيان الحقِّ، إلى آخره... والكلام أكثر من ذلك.

الشاهد طبعًا من الحديث هو قَول النبي ﷺ: "إِنكُمْ سَتَلْقَونَ بَعْدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ". و"حتَّى تلقوني على الحوض" هي سببٌ من أسباب الصبر، مُعينٌ من مُعينات الصبر، خاصَّةً

لأصحاب رسول الله ﷺ؛ لأنَّه نحن مهما أحببنا رسول الله ﷺ، وقدَّمناه في حُبِّنا على حبِّ كلِّ مَن نُحبُّ من أهلينا وأولادنا، وأموالنا وأنفسنا، واشتقنا إليه ﷺ، ولو انفطرت أكبادنا شَوقًا إليه ﷺ، فلنْ يكون مِثل حال الصحابة الذين عاشوا معه، وسافروا، وجاهدوا، وثبتوا وصلُّوا معه، وقاموا الليل، وعاشوا كلَّ هذا، ثمَّ مات ﷺ؛ فمِقدار الألم، وفي نفس الوقت الشوق إلى لقاء رسول الله ﷺ مرةً أخرى بالنسبة إليهم، والموعد المضروب في ذلك، وهو عند الحوض، هو مِقدارٌ عظيمٌ كبيرٌ. ولأجل ذلك حين يقول لهم الرسول ﷺ: "إِنكُمْ سَتَلْقَونَ بَعْدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ" هذه "حتَّى تلقوني على الحوض" كالماءِ البارد الذي ينزل على الصدر، أو ينزل على ظمأ، فيُعين الإنسان على الصبر؛ لأنَّه فاتني شيءٌ من الدنيا، لكن لنْ يفوتني -إنْ شاء الله- لقاء رسول الله ﷺ عند الحوض، باعتبار أنِّي التزمتُ بوصيته التي أمرني بها، وهي الصبر.

ثمَّ الحديث الأخير في باب الصبر، هذا الباب الطويل -ما شاء الله تبارك الله-، والذي عِشنا فيه رحلةً جميلةً، قُرابة العشرين حديثًا، خرَّجهُم النووي -رحمه الله- في باب الصبر. هذا الحديث الأخير:

الحديث التاسع والعشرون: "... اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ..."

٥٣- "عنْ أبي إِبْراهيمَ، عَبْدِ اللَّه بْنِ أبي أَوْفى رضي اللَّهُ عنهمَا، أَنَّ رسولَ اللَّه ﷺ في بعْضِ أَيَّامِهِ التي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ، انْتَظرَ، حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ، فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ لا تَتَمنَّوا لِقَاءَ الْعدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّه العَافِيَةَ، فَإِذَا لقيتُموهم فاصْبرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّة تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ." ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنا عَلَيْهِم." مُتفقٌ عليه". [أخرجه البخاري: ٢٩٦٦، ومسلم: ١٧٤٢]

هذا الحديث أورده الإمام النووي -رحمه الله- لقَول النبي ﷺ: "فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا".

فوائد الحديث:

من سنن القتال العملية الانتظار حتَّى زوال الشمس:

وهذا الحديث يُبين شيئًا من هَدي النبي ﷺ في القتال، وأنَّ من سُنن القتال العمليَّة الانتظار حتَّى زوال الشمس؛ يبدأ القتال بعد زوال الشمس، وهذا مُوضَّحٌ في صحيح البخاري، وفي حديث النعمان بن المقرن رضي الله تعالى عنه الذي قال فيه: "...كانَ إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ انْتَظَرَ حَتَّى تَهُبَّ الْأَرْوَاحُ -أي: الرياح- وَتَحْضُرَ الصَّلَوَاتُ" [البخاري: ٣١٥٩].

وهنا نفس الشيء، عبد الله بن أبي أوفى يقول: "اِنْتَظَرَ، حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهُمْ "، أي الصَّحَابَة، ثم بعد ذلك يأتي القتال. هذه من السنن العمليَّة، وحصلت بعد ذلك في الفتوحات؛ لأنَّ النعمان بن المقرن، لمَّا روى هذا الحديث رواه في نِقاشٍ في وقت المعركة.

الفصل بين النهي عن تمني لقاء العدو والرغبة في الجهاد:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ لا تَتَمنَّوا لِقَاءَ الْعدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّه العَافِيَةَ". سبحان الله، الأحاديث الواردة الكثيرة في فضل الجهاد، وفي فضل القتال، ومع ذلك يقول النبي ﷺ: "لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ".

و"لا تتمنَّوا لقاء العدو" لا يعني عدم الرغبة في الجهاد في سبيل الله؛ لأنَّ هذه جِهةٌ من الجهات، هو لا شكَّ أنَّ تمنِّي لقاء العدو هو صورة الجهاد أصلًا، لكن من هذه الجِهة، ولأنَّ الإنسان لا يضمن نفسه، ولا يعرف ما الذي يكون عليه حاله عند مُواجهة المَوت، فإنَّه لا يتمنَّى هذا الأمر، وإنْ كان من جِهة فضل الجهاد وما ورد فيه يتمنَّاه. وأوضح من ذلك وأصرح أنْ يتمنَّى الشهادة، بل ويسأل ربَّه الشهادة، بل ويكون سؤاله ربه الشهادة بصدقٍ تحديدًا. فهذه جِهةٌ، وهذه جِهةٌ.

كأنَّ الحديث –والله أعلم– فيما يتعلَّق بالاعتداد بالنفس والقُدرة، والظنِّ بالقُدرة على الثبات، والشعور بشيء مِثل الاستخفاف بالعدو: والله سوف نعمل فيهم ونعمل!

الرسول ﷺ يقول: "لا تَتَمنَّوا لِقَاءَ الْعدُوِّ"، **لماذا؟** لأنَّه كما أنَّ هناك جانب فضلٍ وخيرٍ، فهناك جانب ابتلاءٍ، وجانب الابتلاء هذا لا تدري ما تكون نفسكَ عليه عند حُصوله. والذي يُوضِّح ذلك بشكلٍ تامٍّ ما جاء في سورة آل عمران في الآيات المُتعلِّقة بغزوة أُحدٍ، إذ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣] ماذا فعلتم؟ حين رأيتموه، ماذا فعلتم؟ فر مَن فرَّ.

فالإنسان عُمومًا يسأل الله العافية؛ لكن كَونه يسأل الله العافية، لا يعني ألَّا يُبادر إلى الجهاد حين يجِب عليه، ولا يعني ألَّا يُبادر إلى الجهاد تطلُّبًا للفضل، حتَّى لو لم يجِب عليه.

فـ"لا تَتَمنَّوا لِقَاءَ الْعدُوِّ"، هذا عن الأُمنية النفسيَّة، الأُمنية القلبيَّة المرُتبطة بنفس المُواجَهة؛ ولكن هذه الأُمنية لا علاقة لها بالعمل، بأنْ يُبادر الإنسان إلى الجهاد في سبيل الله تطلُّبًا للفضل، الآن ما نتكلَّم عن الوجوب؛ فلا تتمنوا لقاء العدو لا تعني: عدم الخروج للجهاد، ولا عدم الرغبة فيه، ولا عدم المحبَّة له، ولا عدم المبادَرة إليه فقط من باب الفضل؛ ولذلك كان العلماء –حتَّى في السابق– يحرصون على الذهاب إلى الثغور، فقط لينالوا شيئًا من الفضل، والبركة، والأجر العظيم في هذه العبادة، التي قال فيها النبي ﷺ حين سُئل: دُلَّنِي علَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ، قَالَ: "لا أجِدُهُ.." [البخاري: ٢٧٨٥].

فهذا وجه الحديث، يعني: لا تظنَّ حين ترى الأعداء أو تسمع عنهم، أنَّكَ إذا تمنيتَ لقاءهم فالنتيجة الحتميَّة لهذا التمنِّي أنَّكَ ستثبُت، وأنَّكَ ستصبر، وأنَّكَ ستُفنيهم، وأنَّكَ ستفعل وتفعل، لا! اعلم أنَّ الأمر شديدٌ، وأنَّ الأمر عظيمٌ، وأنَّ فيه ابتلاءً، وأنَّ فيه فتنةً، وأنَّكَ قد تصبر وقد لا تصبر؛ ولذلك، سلِ الله العافية. هذا الآن من هذه الجِهة.

بعد ذلك، عندكَ عشرات الأحاديث في فضل الجهاد. أنْ تذهب إلى الجهاد في سبيل الله تطلُّبًا لهذا الفضل، هذا أمرٌ صحيحٌ، وهو الذي صار عليه المُسلمون على مرِّ التاريخ. هذه من جِهةٌ، وهذه من جِهةٍ. وفي نفس الوقت: "مَن سَأَلَ اللَّهَ الشَّهادَةَ بصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنازِلَ الشُّهَداءِ" [صحيح مسلم: ١٩٠٩].

فإذا وُجِد المُوجب الصحيح للجهاد، فلا وجه لذكر هذا الحديث من جِهة التعطيل عن هذا العمل.

بالمُناسبة، **قال النبي ﷺ هذا الحديث في وقت جهادٍ؛ فهذا الحديث ليس مسوقًا مساق التعطيل، هو مسوقٌ مساق التهذيب**؛ هذا الحديث سِيق مساق التهذيب للنفس، لا تثق بنفسكَ وتغتر بها، لا تظنَّ أنَّكَ ستثبتُ، لا تنفِ عن نفسكَ مبدأ الافتقار إلى الله. فهذه الخُلاصة الأساسيَّة من هذا الحديث، والله أعلم.

اختصاصٌ المُجاهدين في سبيل الله بالأجور العظيمة في الآخرة:

ثمَّ قَول النبي ﷺ: "واعْلَمُوا أنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ". لا شكَّ أنَّ من أعظم أسباب دخول الجنة التي وردت بها الأحاديث هو الجهاد في سبيل الله، **والارتباط بين الجنة وبين الجهاد هو ارتباط اختصاصٍ**، أقصد أنه يُوجَد قدرٌ من الاختصاص للمُجاهدين في سبيل الله في الجنة، وليس فقط في الجنة، وإنَّما حتَّى يَوم القيامة قبل دخول الجنة، **هناك اختصاصٌ للمُجاهدين في سبيل الله؛ ومن ذلك:**

- "ما مِن مَكْلُوم يُكْلَمُ في سَبيلِ اللَّهِ إلَّا جاءَ يَومَ القِيامَةِ وكَلْمُهُ يَدْمَى، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، والرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ" [البخاري: ٥٥٣٣]، وهذه علامةٌ مُميزةٌ يوم القيامة لمن جُرِح في سبيل الله من بين الخلق كلِّهم.

- وبعد ذلك في الجنة، هناك اختصاصٌ بمائة درجةٍ في الجنة للمُجاهدين في سبيل الله؛ "إنَّ في الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أعَدَّها اللَّهُ لِلْمُجاهِدِينَ في سَبيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ ما بيْنَهُما كما بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ..." [البخاري: ٧٤٢٣].

- وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ۝ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾ [النساء: ٩٥-٩٦] والأحاديث في هذا كثيرةٌ، ولعلَّ شيئًا منها يأتي -إنْ شاء الله- في رياض الصالحين.

أهميَّة الدعاء والاستعانة بالله قبل الإقدام على الأعمال الكبيرة:

ثمَّ قال النبي ﷺ: "اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، ومُجْرِيَ السَّحَابِ، وهَازِمَ الأحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وانْصُرْنَا عليهم".

وعناية النبي ﷺ بالدعاء عند القتال، وقبل القتال عنايةٌ كبيرةٌ جدًّا جدًّا، بل هي عجيبةٌ، هي في درجةٍ من العجب أنَّها تبعث المؤمن على الاقتداء، وتمام الاقتداء، ويُؤخَذ من هذه الأحاديث في الدعاء قبل القتال المعنى الكلي؛ **أهميَّة الدعاء والاستعانة بالله قبل الإقدام على الأعمال الكبيرة، خاصَّةً الأعمال المتُعلِّقة بالتضحية في سبيل الله**، نعم هي واردةٌ في الجهاد، لكن يُؤخَذ منها أساس المعنى، الذي هو تحقيق الاستعانة بالله والدعاء. بلْ وصف الله سبحانه وتعالى دعاء النبي ﷺ قبل بدرٍ بالاستغاثة، ودعاء النبي ﷺ يَوم بدرٍ -إذا استعرضتَ السيرة النبويَّة كاملةً- هو من أعجب المقامات في الدعاء، في كلِّ سيرة رسول الله ﷺ، إنْ لمْ يكُن أعجبها على الإطلاق!

أوَّلًا، أمضى ليلته ﷺ، والصحابة نِيامٌ، قائمًا، يُصلِّي ويبكي تحت شجرةٍ، ثمَّ لمَّا كان في يَوم بدرٍ، كان النبي ﷺ يرفع يديه ويدعو، ثمَّ يدعو، ويمد يديه ويستغيث، ثمَّ يستغيث ﷺ، ويقول: "اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ ما وَعَدْتَنِي" ويدعو ويستغيث ﷺ، إلى أنْ أتاه أبو بكر الصديق، وقال: "يا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ؛ فإنَّه سَيُنْجِزُ لكَ ما وَعَدَكَ" [مسلم: ١٧٦٣].

وهذا فيه باب فقهٍ كبيرٍ في العبوديَّة لله سبحانه وتعالى؛ أن يفهم الإنسان ما هي العبوديَّة لله سبحانه وتعالى، وما هو معنى التعلُّق والاستمداد، وأنَّ الوعود في الوحي لا تعني عدم اتخاذ الأسباب، بل ولا

تعني استيفاء الجهد في اتخاذ الأسباب، التي من أعظمها الدعاء؛ لأنَّ الدعاء من جُملة الأسباب. **اتخاذ الأسباب، وخاصَّةً الدعاء، هو من أعظم الأسباب.**

على أي حالٍ، من مَواطن الدعاء –ونحن لدينا مَواطن دعاءٍ، ولدينا آداب الدعاء–: الدعاء عند الجهاد في سبيل الله، وكما قلتُ، يُؤخَذ منه معناه الكلي، الدعاء عند الأمور العظيمة المتُعلِّقة بنصرة الإسلام، سَواء كانت بالجهاد أو بغير الجهاد، أو يُمكِن القَول: سَواء كانت بالجهاد الحسي، أو بالجهاد المعنوي الذي سمَّاه الله جهادًا، كما في قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

نسألُ الله سبحانه وتعالى العَون والتوفيق والمدد، ونسأله سبحانه وتعالى أنْ يهدينا ويسددنا.

وصلِّ اللهمَّ على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين